تجليات اللاَّوُجود في رو اية "اختفاء السيد لاأحد" لأحمد طيباوي
-مقاربة تفكيكية

Manifestations of Non-Existence in the Novel "The Disappearance of Mr. Nobody" by Ahmed Taibaoui
- Deconstructive approach

حمزة بوزيدي1,*

1المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف-ميلة (الجزائر)bouzidi.h@centre-univ-mila.dz

تاريخ الإيداع: 2024/10/01 **تاريخ المراجعة**:2025/02/18 **تاريخ النشر**: 2025/04/10

ملخص:

يَبحث هذا المقال في المشروع السردي للروائي "أحمد طيباوي" القائم على تمظهرات الإنسان في العالم الوجودي، وقدرته على تدبير ذاته في خضم التناقض الصارخ في زوايا النظر ومواطن التعايش مع الآخرين. عبر المساءلة النقدية لرواية "اختفاء السيد لاأحد"، من خلال الاعتماد على رهان تفكيك عناصر البنية الداخلية مع الاستعانة بالتحليل السيميائي.

وقد خَلصت النتائج، إلى أنَّ أنماط التفكير والفعل لدى الذات تشتغل وفق منطق السبب والنتيجة؛ ففكرة اللاَّوجود تستحوذ على شكل ومضمون النص، وتتجلى في عنصري "اللاَّهُوية" و"اللاَّإرادة"، اللتان تدفعان إلى نتيجة حتمية هي "الاختفاء"، ناهيك عن النزعة التمردية الرافضة للواقع الثقافي القائم، والراغبة في تجاوزه.

الكلمات المفتاحية: اللاوجود، اللاهوية، البنية، الاختفاء، الذات.

Abstract:

This article explores the narrative project of the novelist "Ahmed Taibaoui," which is based on the manifestations of humanity in the existential world and its ability to manage itself amidst the stark contradictions in perspectives and the realms of coexistence with others. Through the critical examination of the novel "The Disappearance of Mr. Nobody," by relying on the bet of deconstructing the elements of the internal structure with the aid of semiotic analysis.

The results concluded that the patterns of thought and action within the self-operate according to a logic of cause and effect; the idea of non-existence dominates the form and content of the text, manifesting in the elements of "non-being" and "non-will," which lead to an inevitable conclusion of "disappearance," not to mention the rebellious inclination that rejects the existing cultural reality and seeks to transcend it.

Key words:non-existence, non-identity, structure, disappearance, self

* المؤلف المراسل.

تقديم:

يتخذ الروائي الجزائري "أحمد طيباوي" البعد الوجودي للذات البشرية مشروعا سرديا يغوص من خلاله في طبقات النفس البشرية ويستعرض آمالها وأحلامها وآلامها ومجمل أمراض كينونتها، وذلك في ثلاثيته (موت ناعم-رسائل من وطن آخر-اختفاء السيد لاأحد) وهو في سعيه هذا يتجاوز مستويات العيش السطحية إلى مستويات مضمرة متشابكة.

ولئن حاول الروائي "أحمد طيباوي" في روايته الأولى "موت ناعم" إلقاء الضوء على وضعية المرأة الجزائرية في معركة الوجود، وعَرَّج في روايته الأخرى "مذكرات من وطن آخر" على بعض أنماط الاغتراب (الاجتماعية، السياسية، النفسية)، في أبعادها الوجودية، فإنه لا يبتعد كثيرا عن هذا المسار في رواية "اختفاء السيد لاأحد" –عينة الدراسة- أين يفسح المجال للكشف عن سيرة الاختفاء المُلتبس في تضاعيف الوجود، في سياق تعدد المصائر والأقدار والمسارات السردية، المنجزة منها والمتحولة، والمتوقفة.

لا يكتفي الروائي "أحمد طيباوي" بتصوير معالم الأشياء التي نلاحظها في العالم، بل يحيلنا كذلك إلى أشياء كانت خافية عنا، لأن طبيعة الحياة المعاصرة وتراكمية الأحداث وكثرة التحولات تشتت انتباهنا. إنه يفتح أمام القارئ أبعادا جديدة للعالم تقع في أقاصي الوجود الإنساني وزوايا النفس المظلمة، تتجاوز معرفتنا السطحية في عالم الحياة اليومية وعوالم التفكير، خاصة ما تعلق منها بأساليب التفكير وكيفيات الوجود والنظر في قضايا الهوية، والوجود، الانزياح، الذنب، التعويض...

إن عالَم الوجود مُثقل بالقضايا الوجودية الشائكة والمتعددة، ولكن رواية "اختفاء السيد لاأحد" تركز على بسط المظاهر التي تساعد في إنجاز فكرة "الاختفاء"، أو بصورة أكثر بساطة فكرة "البحث عن اللاوجود" في سبيل تحقيق الوجود الذي ترغب فيه الذات، وعليه من الضروري أن نطرح الأسئلة التالية: ما دلالة بنية العنوان الإشكالي كعتبة أولى لهذه الرواية؟ ما هي أبرز تجليات اللاوجود المقترحة داخل نسيج الرواية؟ وهل يمكن أن يكون البحث عن اللاوجود بديلا منطقيا للوجود؟

1.تمظهرات العنوان:

حظي العنوان باهتمام ملحوظ في الدراسات النقدية السيميائية، باعتباره العتبة الأولى التي يقف عليها القارئ قبل ولوج عالم النص الروائي؛ فهو علامة لغوية ذات اقتصاد وتكثيف لمعنى الداخل، يستطيع القارئ من خلاله أن يدرك جوهر الأحداث ولو بشكل نسبي، ولذا من الواجب أن نفتح باب التأويل لمحاولة تفكيك بنيته اللغوية والاحتمالات الدلالية الممكن تجريدها من خلاله.

إن مُحاولة تفكيك العنوان هَاهُنا، لا تُعنى بالشكل والفضاء الطباعي، وإنما بالدلالات الضمنية المتواشجة مع بنية النص. والتي تستدعي اقتراح بعض الفرضيات الممكن استنتاجها من خلال البحث في التأويلات التي يمكن أن تنفتح عليها بنية العنوان، والمتمظهرة في شكل ثنائيات ضدية تتجاوز معاني التناقض على المستوى

الظاهري إلى التناسب على المستوى العميق، لتشتغل على تفعيل وتفجير الدلالات الكامنة في جسد النص، والتي يمكن تفصيلها على النحو التالي:

أ- الوجود/اللاوجود:

يتحرك الإنسان ضمن أطر زمانية ومكانية محددة، ما يعني وجوده الفعلي في تفاصيل الحياة اليومية، فيكون في نطاق رؤية الآخر؛ أي أن له حُضورا وظُهورا، يمكن معاينته والإحساس به والظهور يُرادف الوجود، لأن الشيء غير الظاهر غير موجود أصلا، أي أنه في وضعية تخفي وانزواء، إلا في حالة الأشياء المجردة، "فمعنى أن يوجد الشيء هو أن يبرز أو ينبثق من خلفية معينة بوصفه شيئا موجودا هناك وُجودا حقيقيا"[1]. ومنه يمكن القول أن كلمة "اختفاء" في بداية عنوان الرواية قد تحيل إلى الفرضية العامة التي نبني عليها مقالنا هذا وهي الوجود وما يقابله من معنى اللاوجود.

ب- السيادة/التهميش:

من الواضح أن لفظة "السيد" تطلق في العادة على الوجهاء من أصحاب المال، الجاه والنسب، فهي تقترن إذن بالرتب العليا، والمكانة الاجتماعية والسلطة (أيا كان نوعها)، وهذه الصفات تجعل صاحبها الموسوم بها في واجهة الأحداث، وتُصيره حدثا ظاهرا لا ينفك يختفي وجوده عن أنظار أفراد المجتمع، فالسيادة في مَفهومها "خاصية أو شرط لوجود السيد (sovereign)، أي لوجود المتفوق أو البارز في ميدان معين"[2]، وهذا البروز يفرض عليه المواجهة والتصدي والتصدر، بدل الانزواء والتراجع والاختفاء، وهنا، صار من اللازم علينا أن نطرح التساؤل عن موقع ودلالة كلمة "السيد" الواردة في منتصف العنوان والمتموقعة بين لفظتي "الاختفاء" و"اللاأحد"، على الرغم من مناقضتها لهما في المعنى، فما هي ماهية هذا "السيد" المتخفي وغير الموجود؟ ثم هو سيد على ماذا إن لم يكن سيدا على وُجوده؟ ولماذا يرغب في البقاء في الهامش إن كان يحمل هذه الصفة المرموقة، صفة "السيد"؟.

ج- الفردانية/الجماعية:

يَرِد "اللاأحد" في عنوان الرواية بصيغة المفرد، والفردية هنا تُقصي استدعاء الآخرين بوصفهم جماعة، والفرد وغيره من الأفراد الآخرين يُشكلون الحياة الجماعية المشتركة، فالنزعة الفردانية بارزة جلية واضحة، ومع اقترانها بمدلول الاختفاء، فإنها تصبح حينئذ نزعة انسحابية من الحياة المشتركة مع الآخرين، يمكن تبريرها على افتراض يضعها ضمن "الوجود البشري الزائف". إن حالات اجتماع الناس في منطق الوجوديين يكتنفها طابع التشويه، وعلى هذا الأساس يجب علينا –على حد تعبير جون ماكوري- "أن نفهم نقدهم للمجتمع ودعوتهم الفرد للخروج من الحشد لكي يحمل على كاهله عبء وجوده"[3]. فهل يمكن أن يكون اختفاء "السيد لاأحد" محاولة للخروج من حشد الوجود الجماعي المشترك؟ أم أنه لم يعد قادرا على تحمل عبء الوجود على المستوى الداخلي والخارجي، فقرر الرحيل والاختفاء؟.

2. أزمة وُجود الذات:

ينقسم المسار السردي لشخصية "السيد لا أحد" إلى قسمين رئيسيين: القسم الأول يستهلك نصف الرواية، والمعنون بـ"الرجل الذي سرق وجهه ورحل" وهو جزء مرتبط بفترة ما قبل الاختفاء النهائي من ساحة الأحداث، ويرتكز على "النمو الوجودي" لشخصية "السيد لا أحد" في ظل اليتم الأسري بعد موت والديه وعمته التي أشرفت على رعايته. هذا الحرمان أثَّر على الاستقرار النفسي وخلخل إمكانيات المواجهة والمقاومة داخل المعترك الوجودي.

بعد مرحلة البلوغ التي تزامنت مع الحرب الأهلية في الجزائر يتم اختطاف "السيد لاأحد" من طرف الجماعات الإرهابية وإطلاق سراحه بعد تبريئه من أحد قادة الجبهة الإسلامية، ولكن عودته للوسط الاجتماعي تُكلل بالانهيار العصبي ودخوله مستشفى الأمراض العقلية الذي فر منه لاحقا بمساعدة إحدى الممرضات، "ولعل ضغط الواقع هو الذي أفضى إلى استعادة الجنون بوصفه ملاذا نستطيع من خلاله استعادة توازننا، أو الهرب كما الاستتار، وبوجه خاص بعد التعرض لحادث أليم، ونعني صدمة تتجاوز قدرة التحمل وتفوقه"[4]. فالانهيارات العصبية تحمل دلالات الضعف والمرض، كما تحمل دلالات الشفاء واستعادة الذات وبالإضافة إلى شغله لمهن مبتذلة (عامل نظافة) وهو الإنسان الجامعي المثقف الحالم بمشاريع ثقافية عديدة.

ولعل هذه الوضعية العصية على التحليل، تطرح نفسها كجزء من "الاغتراب الوجودي"؛ أين تنمو الشخصية الإنسانية بطريقة مشوهة تقلل من فرص اندماجها مع المحيط الاجتماعي والثقافي السائد، وهذا بعدما تتعرض "وحدة الشخصية" للتمزق والتفكك والضعف والانهيار بتأثير السياق الوجودي.

فشخصية "السيد لاأحد" تأثرت بصورة أكبر بالسياق النفسي أثناء مرحلة الطفولة، والسياق السياسي أثناء مرحلة المراهقة والشباب. وعليه يصبح الجنون/ادعاء الجنون حَلا مُؤقتا لاستعادة التوازن، وتدشين لبداية مسار الاختفاء. ولعل القسم الثاني من الرواية المعنون بـ"الجحيم يطل من النافذة" هو نتيجة حتمية لأحداث القسم الأول منها، وهو مشروع الاختفاء النهائي من الوجود.

3. بين اللاَّهوية واللاَّإرادة:

من المتعارف عليه أن الهُوية تعني جوهر الشيء وخصائصه التي تميزه عن غيره، وهُوية الإنسان هي مميزاته الاجتماعية والفكرية والنفسية التي تجعله مختلفا عن الآخرين، ولكن هذه الهُوية قد تصل لحالة من التأزم تدفع بها إلى اللاهُوية، والمقصود بذلك تعطل إدراك الفرد وانعدام فهمه للعالم المحيط به وانهيار توافقاته مع الوجود، وعدم قدرته على بناء توقعات منسجمة مع آماله وتطلعاته وأفق انتظاره، مما يؤثر سلبيا على نمط تفاعله ومقومات شخصية النفسية والجسدية والعقلية...

بالعودة إلى أحداث الرواية، يرى ضابط الشرطة "رفيق ناصري" أن التوافق مع المجتمع رهين بجملة من التنازلات التي لا يحسنها الأغلبية، يقول متسائلا: "كم من التنازلات على المرء أن يقدمها حتى يتأقلم.. يتكيف؟ للانهزام

والتطويع القسري للذات مسميات أكثر تهذيبا وأقل وطأة على النفس، لكن المضمون يبقى نفسه"[5]. خاصة إذا لم تمتلك الذات المقومات الوجودية اللازمة المدفوعة بإرادة الصمود والمواجهة، وخاصة إرادة الفعل المفضي إلى التغيير.

يبدأ مشروع التخلي عن الهُوية من مرحلة إدراك عدم صلاحية الهوية القديمة وضرورة التخلي عنها والانتماء إلى هويات مؤقتة تتناسب والسياقات الوجودية المحيطة، يقول: "سقطت بطاقة هويتي في مرحاض المحطة وتبللت، استخرجتها، ولما وجدتها تالفة تماما.. رميتها مجددا وسكبت دلوَ ماء. نسيت اسمي لما سألني عنه في البداية، كنت أمنح نفسي اسما مختلفا في كل مكان أرحل إليه"[6]. لا شك أن المقصود بالتلف هنا يتعدى المعنى السطحي لمعلومات البطاقة إلى الدلالة الرمزية المعبرة عن جوهر صاحب البطاقة، وهذا التخلي راجع لخصوصية الرحيل وابتلاءاته.

لكن اللاَّهوية أدخلت "السيد لاأحد" في مشاكل يومية لا نهائية من بينها أنه لم يستطع المبيت مع الشيخ المريض والد "مراد" المغترب في المستشفى، بحيث أن الإجراءات الأمنية تقتضي تدوين المعلومات الشخصية لمرافقي المرضى، وعليه تغدو ثنائية "الإنسان/المواطن" عائقا أمام المشروع السردي لشخصية "السيد لاأحد"؛ فالتفاعل الإنساني رهين بالممارسات والقيم، في حين تتعقد شبكة المواطنة بتعيينات الهوية والإثبات والمكانة وغيرها. إنَّ محاولة التخلي عن الهوية له ضريبته الوجودية والتي على بطل الرواية تحمل تبعاتها ورهاناتها.

وبعد الإدراك يأتي دور اتخاذ القرار بقطع روابط المرجعية الهووية، "أريد أن أعيش دون صورة أو انعكاس"[7]. في إشارة إلى طمس الوجود والأثر بصورة نهائية. كما أن جوهر الهوية يقتضي شرط الاستمرارية، وهو ما تفتقده شخصية "السيد لاأحد" التي تتخلى في كل موقف وجودي عن صفة من صفاتها لتنتهي إلى الاختفاء النهائي، وهذا ما يدعم فكرة "اللاهوية"، كما أن القدرة على الاستمرار في النسق الهووي الواحد تتطلب إرادة الفعل والحفاظ عليه أو تنميته، وعليه فإن اللاإرادة قد أضعفت من شرط الاستمرارية.

أما المرحلة الثالثة فهي الاستسلام ومنح المجتمع حرية الإرادة في تشكيل هوية الذات، والاستسلام لذلك، يقول: "أنا لا أحد، سوى ما أرادني الناس أن أكون عليه"[8]. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن تسليم الإرادة للمجتمع ليس ضعفا من البطل، وإنما هي استراتيجية منتهجة من طرفه، لأنه يعي أن تضارب الآراء في تشكيل هويته سيدفع بمزيد من التناقض المؤدي إلى الارتباك والتشويش وهذا ما يساعده على التخفي.

على امتداد النصف الأول من الرواية تتزامن ملفوظات اللاهوية مع ملفوظات اللاإرادة (لا أريد، لا أستطيع، أنا عاجز...) لتحيل إلى العجز في اتخاذ القرار مقابل ضغوطات الوجود، وفي ذلك يعلن قائلا: "إرادتي الكسيحة هي علتي المزمنة"[9]. بل إن إرادته دون مستوى الوجود الطبيعي، "سألت نفسي كيف أواجه الوضع الجديد، وأنا لا أستطيع أن أتحدى حتى نملة ولا أريد"[10]. رغم أن بطل الرواية "السيد لاأحد" ينسب في بعض الأحيان أزمته المصيرية إلى الظروف، "أنا حبيس جملة من الظروف لا أجد سببا منطقيا يجعلها تتفرغ لي وحدي من دون الناس"[11]. ولعل كثرة التذمر ولوم القدر جزء من ضعف تدبير الذات.

بالإضافة إلى أن كل شخصيات الرواية تترك مسألة تدبير وتسيير وجودها للقدر مُعلنة نفسها فاقدة للإرادة مذعنة للظروف والأقدار، ولكن "السيد لاأحد" وحده من جمع بين اللاإرادة واللاهوية في سعيه للاختفاء، مع الإشارة إلى أن مشروع الاختفاء بدأ بطمس معالم الهوية، لينتهي في الأخير إلى الاختفاء الفزيائي النهائي من مجال الرؤية سواء على مستوى الواقع التخييلي أو على مستوى حضور الشخصية.

من خلال التظافر السابق بين الرغبة في اللاهوية، وإكراهات اللاإرادة، يمكننا أن نستنتج بعض الخصائص الإيديولوجية لشخصية "السيد لاأحد"، الذي يتصف بنوع من "الإيديولوجيا العدمية" المتميزة برفض الواقع الاجتماعي والثقافي، مُتخذا من الاختفاء سبيلا لتحقيق هذه الرغبة، ولكنها "إيديولوجيا مُستكينة ثابتة" لا تعمل على محاولة طرح بديل لتغييره أو تجاوزه، وهذا راجع إلى هيمنة اللاَّإرادة على تفكيره، وتتضح هذه الأفكار ضمن رؤية العالم الخاصة ببطل الرواية. تلك الرؤية ترى العالم بمنظور سوداوي متعالي على هشاشة العالم، يقول: "إنه يحرمني من فسحتي الوحيدة، بأن أجلس في الشرفة وأتأمل تفاهة العالم إذ يسترها الظلام"[12]، فهو يتخذ من التخفي موقعا للتفكير في عالم الظهور/الوجود. ولأن فكرة "تحويل الواقع" تتطلب جُهدا جَبارًا وأسبابَ إنجازٍ يتمحور جزء كبير منها خارج نطاق فعل الذات الراغبة، فقد اختار أيسر الخيارات وهو الاختفاء.

4. نسق الاختفاء:

تبدأ فكرة "الاختفاء" مُقترنة بـ"نسق السخرية" الضارب بجذوره في التراث الفلسفي العالمي، ويتم استثماره في اتجاهين: اتجاه السخرية من بلادة التفكير السائد القاصر عن التأويل، واتجاه الخلاص من عقبات وعوائق الوجود الفعلي؛ أين يصبح "اللاشيء/اللاأحد" حائلا دون تلقي العقاب داخل صراع البقاء، "ففي الأوديسة مثلا يُروى أن عملاقا وسيما وغبيا في آن واحد يدعى بوليفيموس قد أمسك بأوديسوس وسأله عن اسمه –وكان أوديسيوس معروفا بحيله وألاعيبه الماكرة- فأجابه: "لا أحد." ثم قام أوديسيوس بفقء عين هذا العملاق الذي لم يكن له إلا عين واحدة، فانتبه جيران بوليفيموس على صراخه من شدة الألم وهرعوا ليقدموا له يد العون فأخبرهم أن "لا أحد" قد تعرض له بالأذى، وهو ما أساء جيرانه فهمه فرجعوا عنه وتركوه وحيدا"[13]. وإذا كان أوديسيوس قد استعمل صيغة "اللاأحد" ليفلت من العقاب المحتمل من طرف جيران العملاق، فإن "السيد لاأحد" في الرواية قد اتخذها سبيلا للتقنع والتملص من قبضة الشرطة في قضية اشتباه بالقتل لم يرتكبها، وليس التخفي من الشرطة فقط، وإنما من المجتمع ومن هويته أيضا.

لا تتقاطع حادثة الأوديسة مع الرواية في التسمية والدلالة فقط، وإنما في تفاصيلها أيضا؛ فالجيران يتواجدون في كلا النصين (الأوديسة والرواية) باعتبارهم شاهدا، ولكن في الحالتين يتحول مسار التفكير ويحيد عن الوصول للحقيقة، ففي الرواية عندما يسأل الشرطي المحقق الجيران عن أصول عائلة "السيد لا أحد" يتجاهلون الحقيقة، "أما بعض من سألهم من الجيران فأخبروه أن إبراهيم لم ينجب إلا عمارا، أما الآخر فلم يره أحد، وربما لا وجود له من الأساس. يحب الناس أن يكذبوا ليخفوا جهلهم بما يسألون عنه"[14]، والواضح أن عدم المعرفة انتهت في الحالتين (الأوديسة/الرواية) إلى الإعراض عن الفعل تجاه المبحوث عنه، سواء بتركه، أو بتلفيق أجوبة تُجانب الواقع بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

يتواصل "نسق السخرية" في بعض خصائص الهوية كالمظهر والعمر وأسلوب التحرك داخل أطر المكان، أين يصل وصف "السيد لا أحد" من طرف سكان الحي، أثناء التحقيق في اختفاءه المفاجئ، إلى التضارب الساخر المفضي بدوره إلى الضبابية التي تعيق منطق التفكير السليم، يقول الراوي: "في الحي حيث يفترض أنه كان قاطنا، تناقضت أقوال جيرانه، يعرفونه ولا يعرفونه، اختلفت شهاداتهم حول اسمه وشكله اختلافات غير مقبولة، يعرفه الجميع ولا يعرفه أحد. كان انعزاليا يتفادى الجميع وأحيانا لا يرى لأسابيع، مصابيح شقته مضاءة لكن لا صخب بالداخل"[15].

وبفقدان معطيات التفكير السليم يبلغ النسق الساخر منتهاه عندما يلجأ المفسرون إلى عالم الغيب بافتراض أن يكون "السيد لا أحد" واحدا من الجن وبالتالي لا جَدوى من البحث عنه داخل المجتمع، وهذا من مُخلفات المخيال الجمعي الرجعي المتحكم في تفكير أغلب الطبقات الدنيا التي تحتكم إلى العقل القصصي.

من جهة أخرى، يُحيل بطل الرواية "السيد لاأحد" اللغة الواصفة لهويته إلى "حِصن للوجود" عن طريق صياغتها وفق رؤية تخلق نوعا من الضبابية والتشويش لدى الغير، ينتج عنها العدول عن التفكير في التعرض للذات، ومن ثم الإحجام عن الفعل المضاد، "فليس بوسع أي إنسان أن يُفكر في شيء غير موجود أو يتحدث عنه؛ فهذا من وجهة نظره يعادل الحديث عن اللاشيء، والشخص الذي يتحدث عن اللاشيء أو يفكر فيه لن يستطيع أن يتحدث أو يفكر بشكل سوي بأي حال من الأحوال؛ ولذلك علينا أن نمحو الأشياء غير الموجودة أو اللاشيئ تماما من فكرنا"[16]. لأنها لا توفر عناصر ومعطيات يستند عليها العقل أثناء محاولة بناء تصور منطقي عن هذا الشيئ/الشخص.

وهذا ما ينطبق على حالة الشرطة في بحثها عن الرجل اللغز الموصوف مجازا بـ "السيد لا أحد"، فبعد وصول التحقيقات إلى طريق مسدود، واختلال منطق التفكير السَّوي لدى الشرطة، ينتهي المحقق "رفيق صايفي" إلى اللاجدوى من البحث، "طلب الاذن بالانصراف وخرج بعد أن ألقى التحية، وطلب قبل ذلك إعفاءه من مهمة التحري عن هذا الرجل بالذات. يكره المحققون الوصول إلى الطرق المسدودة، وظيفته أن يحل الألغاز، لكنه فشل."[17]. وفشل الآخر دليل على قوة نسج الذات لخطتها الرامية للاختفاء.

تنتقل فكرة "اللاَّشيئ" من حالة إخفاء كينونة الذات إلى الرغبة في التأثير على الآخر وإجباره على مُمارسة المَحو أثناء مُحاولته التفكير في هُوية الذات، وهو ما ينقل سلطة التفلسف في اللغة من بعدها الاستدلالي المنطقي إلى اللاجدوى في التفكير في اللاموجود، وبالتالي محو اللاشيئ من التفكير بطلب المحقق إعفاءه من البحث العبثي. وهنا يتضح أن "الاختفاء" ليس إلا وجه آخر للظهور الآمن المريح.

ولنا في نصوص التاريخ الأدبي مثال في شخصية "عوليس" الذي استطاع حفظ بقاءه بتحوله إلى "لاأحد" "هذا المشهد بقدر ما هو عظيم فهو ساخر أيضا وجدير بالتأمل والتدبر لجهة اقتران حفظ الذات بنفي هُويتها"[18]. إنها استراتيجية البطل في توطين الذات والوصول لحالة الأمن والاستقرار.

يتكثف "نسق الاختفاء" ويتفعَّل لدرجة أن يُصبح نموذجا مُغريا للاقتداء، فيتحول الشرطي المحقق "رفيق صايفي" من البحث عن المتهم "السيد لاأحد" إلى الرغبة في الاختفاء مثله بعيدا عن أنظار المجتمع المتناقض، لذلك فالرواي العليم يرى في شخصية "السيد لاأحد" نموذجا مثاليا على شخصية "رفيق" الاقتداء به، يتضح

ذلك في قوله: "عليه أن يقتفي سيرة اختفائه ويخط طريقا مختلفة، لينتهي مثله إلى النسيان ويرتاح. اختفاء أكرم للنفس من وجود مزيف ومكذوب"[19]. ولا سبيل إلى ذلك سوى بالبعد عن "المشترك الجماعي" الغارق في التماثل القائم على الزيف، فالمحقق لم يستطع الاشتغال بمنطق السلطة القائم على التناقض في قضية الجريمة والعقاب، أين يفلت الأقوى ويتهم الأضعف البريء. هذا المنطق يشتغل ضد المنظومة القيمية التي يتمثلها المحقق القائمة على العدالة والمساواة بين أفراد وطبقات المجتمع.

يتزامن اختفاء "السيد لاأحد" في القسم الثاني من الرواية مع اختفاء السرد بضمير المتكلم "أنا" لِتُوكَل مهمة السرد للراوي العليم (العارف بكل تفاصيل الشخصيات) بصيغة الضمير الغائب، فالسارد يصبح أجنبيا عن العملية السردية، ما يتيح للراوي عرض مصائر الشخصيات الأخرى بصورة خارجية، مما يعني أن الروائي قد جعل تقنيات السرد أداة طيعة تتحول وفق تحولات مسار السرد، على عكس بعض الروايات التي تركز على شكل الإبداع متناسية قيم النص ومتطلباته.

كل الشخصيات والممارسات داخل الرواية تنحو نحوا مُتخفيا يناقض أبعاد الظهور (إمام يمارس الدعارة متخفيا تحت عباءة الرقية الشرعية، حارس مقبرة ينام فيها متخفيا، شرطي عقيم فاشل في نسج العلاقات، اختفاء زوجة الشرطي، اختفاء بطل الرواية، امتيازات ومصالح لمسؤولين وانتهاكات تُحاك في الخفاء...) لتنتهي الرواية على وقع الاختفاء الجماعي لشخوص الرواية بأشكال مختلفة (انتحار عثمان لاقوش المثقف، اختفاء مدير مركز البريد بعد اختلاس مالي، اختفاء حارس المقبرة، اختفاء الشرطي المحقق، قتل صاحب المقهى...) فالاختفاء هو القدر المحتوم لشخصيات الرواية.

كل الأمكنة داخل مقاطع الرواية مؤثثة بملامح الاختفاء، (تيمة الليل والمفردات المجاورة له كالظلام، الألوان الباهتة، المطر، صعوبة رؤية المكان، قلة الإنارة...) بالإضافة إلى أن الزمن هو زمن الخوف والتخفي (من التباس الزمن جَرَّاء الأحداث الدموية للإرهاب، إلى زمن الهروب من المستشفى، إلى الهروب من الشرطة والمجتمع، ثم هروب الشرطي...)

وليس المضمون بمنأى عن شكل الكتابة في الإحالة على النسق العام للنص، فأغلب القضايا تحمل أبعاد الاختفاء، بداية بالطفولة المحتشمة الهامشية المنزوية في ظلام اليتم والقهر النفسي، وصولا إلى حدث الاختطاف الذي يتم في ظروف سرية، التفكير في الجنس وممارسته يكون سريا، موت العجوز في ظروف غامضة، التعدي على أملاك الدولة بطرق سرية متخفية...، وبذلك تتلون عناصر البناء الشكلي بالمضمون من جهة، ويتم إحداث التناسب في توزيع المضمون على عناصر وتقنيات السرد المختلفة من جهة أخرى. إنَّ أبعاد اللاَّوجود قد صبغت كل شيء في شكل النص أو مَعناه.

خاتمة:

تفتح الرواية الباب على حياة أخرى متخفية تضاهي الحياة الظاهرة أو تفوقها، ومن خلال تتبع بعض القضايا المركزية داخلها يتضح أن سمة اللاوجود تهيمن على النص من العتبة الأولى إلى ختام الأحداث، وفيما يلي بعض أهم النتائج المتوصل إليها:

- يتجاوز العنوان في رواية "اختفاء السيد لاأحد" البعد الإغرائي/الإشهاري/التسويقي، إلى معاني التكثيف الدلالي المعبر عن فحوى النص مستعيدا بعض الثنائيات الدلالية المشيدة لهندسة النص مثل: الظهور/الاختفاء، الوجود/اللاوجود، السيادة/الهامش، والتي لا تحيد عن المعنى الإجمالي للنص وكيفيات بنائه.

- تنقسم أحداث الرواية إلى قسمين، قسم البناء المأزوم للذات، وفيه تلعب الذات لعبة التقمص الوجودي المفضي إلى الأزمة بعيدا عن النمو الطبعي المفضي إلى الظهور، وقسم الاختفاء والانزياح الذي هو بمثابة نتيجة حتمية للقسم الأول منها. يرسم مشاريع ومسارات سردية وأخرى مضادة مناقضة لها، ومتحولة أحيانا أخرى (مشروع البحث عن المتخفي، والتحول من البحث إلى التخفي).

- تتجسد فكرة "اللاهوية" من رغبة شخصية "السيد لاأحد" في عدم امتلاك هوية واضحة المعالم، وتتدعم بـ "اللاإرادة" في الفعل وتغيير المصير، تاركا مسار الأحداث ينحو نحوا قدريا بعيدا عن إرادة الذات، على الرغم من أن هذه اللاإرادة مندرجة ضمن المشروع العام الذي تنتهجه هذه الشخصية وهو مشروع الاختفاء/اللاوجود، مع التأكيد على التفكير الإيديولوجي للبطل والذي يتصف بالعدمية والتمرد ورفض الوجود القائم.

- لا تهدف شخصية "السيد لاأحد" إلى الاختفاء وحسب، وإنما تنتهج هذه الفكرة عن دراية، وإن كانت "اللاإرادة" التي تقيده تدل على عكس ذلك، ولعل الغرض الأساسي من فكرة الانسحاب من الحشد الوجودي الجماعي الهش هو رغبة جامحة وخوف من التماهي والتماثل مع محيط لا يستجيب لتطلعات الذات، والجنوح نحو حفظ هويتها وتحقيق أمنها واستقرارها عن طريق إبعادها عن شبح الظهور المزيف.

- تشتغل أغلب القضايا المشار إليها وفق استراتيجية محكمة تتمثل في منطق الأسباب والنتائج، أين تغدو أزمة الذات (ارتباك وتدهور المسار الطفولي ومرحلة الشباب) سببا وجيها في إقرار وتفعيل عناصر (اللاهوية) وتدعيمها بـ(اللاإرادة) اللتان تشكلان بدورهما سببا للوصول إلى النتيجة المرغوبة وهي تحقيق مشروع (الاختفاء) لضمان وجود الذات.

- على الصعيد الفني، تناوب السرد بين ضمير المتكلم (لأن الراوي هو نفسه السيد لاأحد) وضمير الغائب لعرض مصائر الشخصيات الأخرى. كما تتشح رؤية العالم بالسوداوية والعدمية واليأس من عالم الوجود القائم في نظر الراوي على قانون الغاب والمنفعة وانعدام القيمة، والازدواجية في تطبيق القوانين وتفعيلها بين طبقات المجتمع، مما جعل بعض الشخصيات ترغب في الاختفاء.

هوامش وإحالات المقال

[1]- جون ماكوري: الوجودية، تر: امام عبد الفتاح امام، (د.ط)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1982، ص 70-71.

[2]- طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس: مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، تر: سعيد الغانمي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2010، ص 408.

[3]- جون ماكوري: الوجودية، ص 133.

[4]-رامي أبو شهاب: في الممر الأخير: سردية الشتات الفلسطيني (منظور ما بعد كولونيالي)، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2017، ص 193.

[5]- أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد،ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2019، ص 85-86.

[6]- المصدر نفسه، ص 26.

[7]- المصدر نفسه، ص 10.

[8]- المصدر نفسه، ص 33.

[9]- المصدر نفسه، ص 11.

[10]- المصدر نفسه، ص 35.

[11]- المصدر نفسه، ص 33.

[12]- المصدر نفسه، ص 08.

[13]- أنتوني جوتليب: حلم العقل، تاريخ الفلسفة من عصر اليونان إلى عصر النهضة، تر: محمد طلبة نصار، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2015، ص 77-78.

[14]- أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص 105-106.

[15]- المصدر نفسه، ص 62.

[16]- أنتوني جوتليب: حلم العقل، تاريخ الفلسفة من عصر اليونان إلى عصر النهضة، ص 80.

[17]- أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص 64.

[18]- مشيل مافيزولي: في الحل والترحال، عن أشكال التيه المعاصرة، تر: عبد الله زارو، (د.ط)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2010، ص 112.

[19]- أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص 87.

المراجع:

1-أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2019، ص 85-86.

2-أنتوني جوتليب: حلم العقل، تاريخ الفلسفة من عصر اليونان إلى عصر النهضة، تر: محمد طلبة نصار، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2015.

3-جون ماكوري: الوجودية، تر: امام عبد الفتاح امام، (د.ط)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافةوالفنون والآداب، الكويت، 1982.

4-رامي أبو شهاب: في الممر الأخير: سردية الشتات الفلسطيني (منظور ما بعد كولونيالي)، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2017.

5-طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس: مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، تر: سعيد الغانمي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2010.

6-مشيل مافيزولي: في الحل والترحال، عن أشكال التيه المعاصرة، تر: عبد الله زارو، (د.ط)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2010.